رسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشي العاذل
"دراسة تداولية حجاجية "

د. أسماء بنت عبد العزيز بن محمد الجنوبي
كلية اللغة العربية- قسم الأدب
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

رسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشي العاذل "دراسة تداولية حجاجية"

د. أسماء بنت عبد العزيز بن محمد الجنوبي

قسم الأدب - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تاريخ تقديم البحث: ١١/ ٦/ ١٤٤١ هـ تاريخ قبول البحث: ١٠/ ٢/ ١٤٤٢ هـ

ملخص الدراسة:

يتناول هذا البحث رسالة ابن خاتمة الأندلسي "الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل" من باب الدرس الحجاجي التداولي؛ لأن فكرة المقام الترسلي فكرة تواصلية تداولية، وتكمن أهمية البحث في أربعة أمور:

الأول- حاجة نتاج ابن خاتمة الأندلسي إلى الدرس والتحليل، وهو الأديب الأريب النابه في عصره، المميز بأدبه.

الثاني- فكرة الرسالة التي تناولت منغصات العشق بطريقة طريفة لطيفة.

الثالث- حاجة الأدب القديم إلى الممارسات النقدية التطبيقية الحديثة.

الرابع- ظهور الحجاج بشكل لافت في هذه الرسالة؛ مما جعلها أرضا خصبة للتحليل، والبحث.

ثم خرجت الدراسة بعدد من النتائج التي أبرزت أهمية هذه الرسالة في التراث الأدبي الأندلسي، ومن أهمها أن هذه الرسالة تقدم فكرا يمثل مرحلة أندلسية تعتمد على الفلسفة في النقاش والحجاج للإقناع بطريقة لا تخلو من الطرافة والتشويق.

الكلمات المفتاحية: رسالة إخوانية. ابن خاتمة الأندلسي، الحجاج، أنواع الحجاج، وظائف الحجاج.

The just deference between the eye, the slander, and the criticizer" letter: argumentative study

Prof. Asma Abdulaziz Mohammad Aljanobi

Abstract:

A summary of the research of "The just deference between the eye, the slander, and the criticizer" letter: argumentative study.

This research deals with Ibn Khatimah Al-Andalusi's letter, "The just deference between the eye, the slander, and the criticizer", from the aspect of the deliberative argumentative study, because the idea of the elaborate base is a great continues communicative idea. And the importance of this research lies on four:

The first, is- Ibn Khatimah Al-Andalusi product's need for study and analyze, as he is the noble and literary writer of his time, distinguished by his art.

The second, the idea of the letter that addressed the afflictions of love in an amusing way.

The third, the need of ancient literature for modern applied monetary practices.

The fourth - The remarkable appearance of the argumentative style in this letter, which made it a fertile ground for analysis and research.

Then the research concluded a number of results that highlighted the importance of this letter for the Andalusian literary heritage. The most important of which is that this letter carries through an ideology representing an Andalusian era that dependent on thinking and arguing; to prove another vision and presentation in a way that is not free of amusement and suspense.

Key Words: Message of brotherhood, Ibn Khatimah Al-Andalusi, argumentative, types of argumentative, functions of argumentative

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فقد طرأت علي فكرة هذه الدراسة بعد اطلاعي على رسالة "الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل" أثناء نظري في عدد من نصوص الأدب الأندلسي، وقد لفتني فيما تنظرّت افتقار أدب ابن خاتمة إلى العناية والبحث، ورأيتُ في رسالته التي ذكرت بابا يطلب الدرس والتحليل، فشرعت فيه.

ثم رأيت أن المقاربة الحجاجية ملائمة لتناول هذه الرسالة؛ لأسلوبها الذي قامت عليه، وجنسها الذي أُنشئت فيه؛ أليس الأدب الترسليّ عملا تواصليا تداوليا بامتياز؟! ثم إن انتماء هذه الرسالة إلى الرسائل الإخوانية المصطبغة بصبغة الفلسفة التي تقوم على مبدأ الحجة والإقناع لإيصال الفكرة إلى المتلقي، يجعل مكانها من الدرس التداولي الحجاجي مكينا.

إن النص الرسائلي "في تصور القدامى ليس بنص ينتجه كاتب واحد، بل هو استرسال نصي بين متخاطبين اثنين في الكتابة الرسائلية، فالمجال الأدبي الذي تتضح فيه طاقة الأجناس التداولية هو الرسائل المتبادلة بين الكتاب بوجه خاص... وتكون جزءا من تاريخ الشخصية الأدبية وعتبة من العتبات التي تمكننا من فهم الشخصية، وجزءا من تاريخ العلاقة بين الكتاب"[1].

---

(١) التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، أ. د. صالح بن الهادي رمضان. النادي الأدبي بالرياض. المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء. ط١. ٢٠١٥م: ١٤٣.

لقد أفضى "المنزع الاجتماعي الثقافي... إلى تطور القيم التداولية في كل عمل من الأعمال القولية، وفي كل أسلوب من الأساليب على نحو جعل بلاغة الرسائل بإقرار كتاب الديوان أنفسهم بلاغة تداولية مقامية"[١].

لذلك شرعت في دراسة رسالة ابن خاتمة وفاق نظرية الحجاج المنبثقة من التداولية، متخذة من التعريف برسالة ابن خاتمة تمهيدا لي، ثم عرَّجتُ على سيرة منشئ هذا النص الأدبي؛ حتى تفتح آفاقا للفهم والإفهام، ثم بدأت الدراسة بتقسيمها إلى مباحث ثلاثة؛ فخصصت للمقدمات الحجاجية مبحثا، وأتبعته بدراسة أنواع الحجاج الموجودة في الرسالة، ثم درست وظائف الحجاج في مبحث مستقل، وختمت ببعض النتائج التي خرجت بها من الدراسة.

وإذا كان الحجاج هو "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو تزيد من درجة ذلك التسليم"[٢] فإن الخطاب الحجاجي هو ذلك الخطاب الذي يتمتع بعدد من الميزات التي من شأنها أن تسلمه إلى النظرية الحجاجية باطمئنان، ومنها خضوع حججه للتراتبية واشتماله على البعدين الاستدلالي والإمتاعي، وقدرته على التأثير في المتلقي[٣]، وذلك كله موجود في رسالة ابن خاتمة.

---

(١) السابق: ١٤٦.

(٢) التواصل الأدبي: من التداولية إلى الإدراكية: ٧٧.

(٣) انظر: الخطاب الحجاجي: أنواعه وخصائصه، هاجر مدقن. دار الأمان- الرباط. ط١. ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م: ٨١.

التمهيد:

– التعريف بالرسالة:

رسالة "الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل"، "رسالة صغيرة، في أسلوب مسجوع، للتمييز بين أعداء العشاق: الرقيب والواشي والعاذل، مخطوطة هذه الرسالة في باريس، تلي نص مخطوطة الكتاب رقم ٥٧٤٩ (رائق التحلية وفائق التورية) وسبق نشر هذه الرسالة وترجمتها إلى اللغة الأسبانية في مجلة الأندلس"(١)، وتجدر الإشارة إلى أن محقق ديوان ابن خاتمة أشار إلى أن أول من نشرها كان سوليداد جيبرت، وأنه هو الذي نشرها ثانية(٢)، وقال عباس بن إبراهيم السملالي، صاحب كتاب الإعلام: "وقد وقفت على رسالة أبي جعفر ابن خاتمة ... التي أجابه فيها عن سؤاله في الرقيب والعاذل أيهما أثقل، بعد أن ظهر له الأثقل منهما"(٣) (٤).

---

(١) دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، د. الطاهر أحمد مكي. دار المعارف – القاهرة. ط٣. ١٩٨٧م: ١١٨-١١٩.

(٢) انظر: ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ورسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل. تحقيق: د. محمد رضوان الداية. دار الفكر – دمشق. ط١. ١٤١٤هـ-١٩٩٤م : ١٣.

(٣) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي. راجعه: عبد الوهاب ابن منصور. المطبعة الملكية- الرباط. ط٢. ١٤١٣هـ ١٩٩٣م: ٤/ ٤٤١.

(٤) ورد في حاشية ديوان البلفيقي النص الآتي: "في المكتبة الوطنية بباريس نسخة من هذه الرسالة، مخ. رقم:٥٧٩٤، وكتبت عنها المستشرقة سوليدات خيبرت بمجلة الأندلس ع. ١٨، سنة ١٩٥٣، ص. ١-١٦.وقال عباس بن إبراهيم: وقد وقفت على رسالة أبي جعفر ابن خاتمة... التي أجاب فيها عن سؤاله ... ألخ".

وتنتمي هذه الرسالة إلى نوع الرسائل الإخوانية ذات الطابع الفلسفي، التي تدور بين الكتاب خارج نطاق المراسلات الديوانية السلطانية، علما بأن مصطلح الإخوانيات قد تطور "في خطاب النقاد وكتاب الأدب القدامى وتمحض للدلالة على مجال من مجالات التخاطب بين الشعراء والكتاب المتكافئين في المرتبة الاجتماعية"(١)، مع العلم بأن الرسائل الإخوانية صنفان: "أما الصنف الأول فلا يعدو الرسائل الإخبارية التي تسجل ما يجري بين الناس من محاورات حول أحداث الحياة اليومية، وهي لا ترمي إلى تحقيق المقصد الفني، وإن التزم أصحابها بسنن التخاطب في مقام الترسل غير الأدبي. وربما غابت في هذه الرسائل آثار تعبير الكاتب عن ذاته فتحولت الكتابة إلى تقاليد وقوالب جاهزة (letter chiche) على نحو ما نجد في رسائل التعزية والتهنئة والعتاب.

وأما الصنف الثاني فإن القصد فيه يتجاوز الإخبار إلى تحقيق وظائف الإنشاء الأدبي، وبه تتحول المراسلات إلى حركة أدبية، وإلى مجال من مجالات التنافس في الكتابة"(٢).

– شعر أبي البركات البلفيقي، جمع وتحقيق: عبد الحميد الهرامة. مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث– دبي. ط١. ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م: ٧٠.

(١) الرسائل الأدبية ودورها في تطور النثر العربي القديم، أ. د. صالح بن الهادي رمضان. دار الفارابي– بيروت. ط٢. ٢٠٠٧م: ٧٦.

(٢) السابق: ٧٨.

ويبدو أن المقاصد الإخوانية تتغلغل في صميم الحياة اليومية فتتحول إلى أعمال وأقوال، وإلى عادات وتقاليد تعوض الأعمال القولية في المحاورات الشفوية"[١].

ومن ذلك كله أستطيع أن أجزم بانتماء هذه الرسالة إلى الرسائل الإخوانية وفاق التصنيف الثاني؛ لأن الرسائل الإخوانية "مصطلح أدبي يمكن استعماله للتمييز بين أصناف البلاغات داخل أدب الرسائل"[٢].

"وكان الأدباء الأندلسيون يطلقون لفظ رسالة على ما ينشئه الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الأغراض، ويوجهه إلى شخص آخر ويشمل ذلك الجواب والخطاب"[٣]، أي "ما يدبجه الكاتب، ويبعث به إلى غيره"[٤].

والرسائل أنواع من حيث الطول والقصر؛ فهناك الرسائل الطويلة التي تجري مجرى الكتب مثل طوق الحمامة، والتوابع والزوابع، وهناك رسائل دونها في الطول مثل رسالة ابن غرسيه في الشعوبية ورسالتي ابن زيدون (الجدية والهزلية)، وهناك رسائل قصار جرت مجرى المراسلات والمكاتبات المعتادة[٥]،

---

(١) السابق: ٧٨.

(٢) السابق: ٧٧.

(٣) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز القيسي. دار البشير- عمّان. ط١. ١٤٠٩- ١٩٨٩م: ٧٨.

(٤) السابق: ٧٩.

(٥) انظر: السابق: ٨٥.

وأحسب بأن رسالة ابن خاتمة تقع في المنطقة الوسطى بين الطول، والقصر؛ فقد جاءت في سبع صفحات من نسخة الديوان المطبوعة.

أما رسالة ابن خاتمة هذه فتبدأ بذكر رسالة وردت عليه من شيخه وصديقه الذي يستفتيه في أشد الناس وطأة على العاشق، أهو الرقيب أم العاذل؟ فتجيء هذه الرسالة ردا على سؤاله بذكر الفرق بين الرقيب والواشي والعاذل، حتى يفند ابن خاتمة الحجج والأسباب التي تؤكد أن الرقيب أشد وطأة على العاشق من العاذل والواشي، وقد ساق الكاتب لتأكيد هذا الأمر عشرة أسباب، وكان يدعم حججه وذرائعه بالشعر والأثر من القول والخبر والمثل.

– التعريف بمؤلف الرسالة:

ترجم لابن خاتمة لسان الدين بن الخطيب في كتابه الإحاطة، وكان معاصرا له قريبا منه، وقد قال: "وهو الآن بقيد الحياة وذلك ثاني عشر شعبان سنة سبعين وسبعمائة"(١)، واسمه: "أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري"(٢)، وهذه السلسلة "أثبتها ابن خاتمة نفسه في إجازة منحها لأحد تلاميذه على غلاف كتابه "رائق التحلية"(٣).

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد لسان الدين بن الخطيب. مطبعة الموسوعات – القاهرة. ط١. ١٣١٩هـ: ١/ ١٢٩.

(٢) السابق: ١/ ١١٤.

(٣) ديوان ابن خاتمة:٨.

"وهو من المرية وكان يكتب على أهلها إلى السلطان ويقرئ العربية وسائر العلوم بها"(١).

تتلمذ ابن خاتمة على عدد من الشيوخ منهم: أبو الحسن علي بن محمد بن أبي العيش المري، وإبراهيم بن محمد بن أبي العاص التنوخي، والشيخ الفقيه محمد بن محمد أبو البركات محمد ابن الحاج البلفيقي السلمي الذي وجه رسالته إليه(٢).

"واستمر في تحصيله على هؤلاء، وعلى غيرهم أيضا، بما كفل له أن يصبح ذا مركز مرموق وثقافة ناضجة، وبما هيأه بأن يقعد للإقراء في مسجد مدينة المرية"(٣).

وقد ترك ابن خاتمة عددا من المصنفات منها ديوانه الذي جمعه وكتبه بنفسه، وكتابه "فائق التورية ورائق التحلية"، و"تحصيل الغرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"، و"مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية" والكتاب مفقود، و"إيراد اللآل من إنشاء الضوال"، ولم يبق منه غير بعض

---

(١) أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن (نثير الجمان في شعر نظمني وإياه الزمان)، الأمير إسماعيل بن الأحمر، تحقيق: محمد رضوان الداية. مؤسسة الرسالة – بيروت. ط٢. ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م:١٧٦.

(٢) انظر: ديوان ابن خاتمة: ٩.

(٣) السابق: ١٠.

الانتقاءات، ثم رسالة "الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل" التي تحدثت عن وجودها سابقا[١].

وتتلمذ على يد ابن خاتمة جماعة من العلماء الذين شهدوا له بالمكانة، فقد كان حسن الخلق واسع الأدب، شاعرا، ناثرا، حسن الخط، عالما، فقيها ذا مكانة وقدر عند الناس، وأصحاب السلطة الذين كانوا يطلبونه لأن يفد عليهم، وكان يفعل[٢].

توفي رحمه الله سنة سبع مائة وسبعين وهناك شبه إجماع على تاريخ وفاته[٣].

الحجاج في رسالة ابن خاتمة:

١- المقدمات الحجاجية:

للحجاج مقدمات يبدأ منها، وهي "المقدمات المتعلقة بالقضايا التي منها يكون الانطلاق... فهي نقطة انطلاق الاستدلال"[٤] ومنها الوقائع و"تنقسم إلى وقائع مشاهدة معاينة، ووقائع مفترضة، وهناك الحقائق ومدارها النظريات العلمية أو المفاهيم الفلسفية أو الدينية، وهناك الافتراضات وشأنها شأن الوقائع والحقائق، لكن التسليم بها لا يكون قويا حتى تأتي حجج أخرى

---

(١) انظر: السابق: ١١-١٣.

(٢) انظر: السابق: ١٣- ١٤.

(٣) انظر: السابق: ١٣.

(٤) في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، أ. د. عبد الله صوله. دار مسكيلياني للنشر- تونس. ط١. ٢٠١١م: ٢٤.

تقويها في مسارها، وهناك القيم، وعليها مدار الحجاج بكل ضروبه مثل الوطن والعدل، وهناك الهرميات، فالجميل درجات، والقيمة في البنية الحجاجية أهم من القيمة نفسها، وهناك المعاني أو المواضع، وهي مخازن الحجج"[١].

ويبدأ الحجاج في هذه الرسالة من بدايتها، وأستطيع أن أعد جملتها الأولى نقطة الانطلاق نحو الحجاج، والمقدمة الحجاجية الأبرز في هذه الرسالة حيث بدأت بعد البسملة والصلاة والسلام بقوله: "قال الشيخ الفقيه العالم العلم الأديب الفاضل أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة"[٢]، واللافت في هذه الجملة القولية خلوها من مضمون القول، وامتلاؤها باسم ابن خاتمة ووصفه؛ ذلك الوصف الذي يضع ابن خاتمة (كاتب الرسالة) في مصاف الفقهاء أهل النزاهة والدين، ثم يُدرجه في مصاف العلماء أصحاب الدراية والمعرفة، الذين منهم يؤخذ العلم وإليهم يعود، ثم يصنفه مع الأدباء أصحاب الطرف والظرف الذين يعول عليهم المجتمع في التماس دقائق الأمور، ثم يتبع ذلك كله بالاسم الكامل لمؤلف الرسالة؛ حتى لا يدع للقارئ مجالا للشك في نسبة الكلام إلى غيره من الناس؛ لأن ذلك الشيخ الفقيه العالم الأديب هو ابن خاتمة المعروف بين الناس والمعول عليه في أخذ العلم والتسليم به.

---

(١) انظر: السابق: ٢٤- ٢٩.

(٢) ديوان ابن خاتمة: ٢٢٥.

إذن فقد بدأ ابن خاتمة حججه بمقدمة حجاجية تقوم على افتراض تقبل الجمهور لهذه الشخصية، وما يصدر منها من علم سيؤخذ بقدر وافر من التسليم، ويزيد قيمتها في تراتبية الحجج[١]، والحقيقة أن هذا النوع من إدراج الصفات يساعد في "تحديد نوع الموقع الذي ينبغي أن يحكم به عليه"[٢] لأنها تفضي إلى تصنيف الكلام إلى مقبول أو غير مقبول.

ثم يكمل ابن خاتمة مقدمته الحجاجية تراتبيا لتصعد القوة الحجاجية شيئا فشيئا باستعمال الوصف مع إضافة حجة السلطة بشكل خفي حيث قال: " كتب إلي شيخنا الفقيه القاضي الجليل العادل النزيه الصدر الأوحد الخطيب البليغ الأستاذ العلم الأكمل، خلف أولياء الله تعالى ووارث درجتهم، أبو البركات محمد بن محمد بن الحاج البلفيقي –أبقى الله بركته، وحفظ في مراتب أهل العلم درجته– سائلا ومنازلا"[٣].

ولم يكن ابن خاتمة يستطيع أن يسبغ تلك الصفات على نفسه؛ لأن المدح الزائد لنفسه سيضعف حجته، وسيهوي بسلطته، لكنه عزز سلطته بسلطة معرفته بشيخه المعروف بين الناس الذي جعله في مرتبة توازي مرتبته بل ربما ترتفع فوقها حين قال: "سائلا ومنازلا" لأن ذلك لا يكون إلا بين الأنداد.

---

(١) انظر: في نظرية الحجاج: ٣٣.

(٢) انظر: السابق: ٣٢.

(٣) السابق: ٢٢٥.

ثم يقوم ابن خاتمة بسرد رسالة صاحبه التي يجزل فيها الثناء عليه حيث قال: "يامن إذا تنافرت المعاني فهو لها حكم عادل!"[١] حتى قال واصفا ابن خاتمة بقوله: "لازلت للمعاني خبئا، ولطلابها ردءا"[٢].

والرسالة إرادة حجاجية فلسفية تطلب من المتلقي تصديق الفرضية التي سيأتي بها هذان العلمان بطلب الأسباب، وتأييدها بالحقائق، والوقائع، ألا ترى أن السائل قد كتب: "أيما أثقل على المحب: الرقيب أو العاذل؟ وقد ظهر لي من الأثقل، ولكني أردت أن يتأيَّد ما من ذلك يعقل، بما عن مثلك من الأخبار ينقل"[٣].

ثم يجيء الرد من ابن خاتمة معززا مقدمته الحجاجية بالحقائق المعروفة بين الناس حيث قال: "فأجبته جاريا من طريقة الأدب على المهيع الذي سلك والمذهب الذي ذهب وهو (الفصل العادل، بين الرقيب والواشي والعاذل). أما بعد حمد الله تعالى مخول أوليائه من مواهب آلائه، واجتبائه ما يربي عن رغبة الراغب وأمل الآمل، المصطفي لهم من موارد حبه ومشاهد قربه ما تنزه عن رقبة الرقيب وعذل العاذل؛

والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى الكريم المخصوص من تلك المقامات بأحظى درجة الأواخر والأوائل؛

---

(١) السابق: ٢٢٥.

(٢) السابق: ٢٢٥.

(٣) السابق: ٢٢٥.

والرضى عن آلهِ الكرام وصحابته الأعلام أولي الفضائل المأثورة والفواضل، المحرزين عنه إرث تلك الدرجة الرفيعة والمقام الفاضل"[١].

والمتأمل في الكلام السابق الذي لا يضم غير الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين يجد بين السطور إشارة إلى أن ما سيقوله ابن خاتمة في هذه الرسالة هدي من الله له، أرشده لقول ما سيقول منطلقا من حقيقة معروفة، وهي أن الأمر كله بيد الله وأنه لا حول ولا قوة لعباده من غير هديه وحوله وقوته، لكن ابن خاتمة جاء بهذه الحقيقة ليضاعف حجته، ويدعم رأيه بما سيأتي على قوله، ألا ترى أنه قال: "مخول أوليائه من مواهب آلائه"[٢].

ثم تأتي الرسالة موجهة إلى صاحبه السائل، معتمدا في انطلاقها على التقديم بالوقائع؛ لأنه يريد أن يقول لنا بأنه لا يتكلم من فراغ، بل يأتي بحججه بناء على واقعة عاشها بنفسه، وذلك واضح في رسالته حيث قال: "فإنك -أيها الحبر البحر، والإمام الصدر، وقاك الله خلسة الرقباء وإلحاح العاذل واختلاق الوشاة- سألت عن مسألة من المسائل: أيما أثقل على المحب الرقيب أم العاذل؟ فهلا في الزمان الغابر والعصر الذاهب والعهد المتقدم؛ والقلب حليف حب وشوق، حتى أخبرك عن عيان وأشافهك عن ذوق؟ أما

(١) السابق: ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) السابق: ٢٢٥.

وقد خبا الوقد وكبا الزند، ونبا الحد وفاء ظل الأنس الممتد، فأقول بمقتضى النظر، وليس الخبر كالخبر"[١].

ولعل الجملة الأخيرة تختصر المراد؛ لأن ابن خاتمة يقرُّ بأنه يعرف مسائل الحب معرفة الخبير المجرب العارف، ويؤكد هذا الكلام أنه سُئل عن الرقيب والعاذل، فأضاف الواشي فقط؛ لأنه يعرفه معرفة العارف المجرب، فما سيتحدث عنه نابع من خبرة واقع، وملاحظة معايش.

ثم تنثال الحجج، ويبدأ ابن خاتمة في التصنيف والتعريف والتعداد، بعد أن انطلق من مقدمات حجاجية تقوم عل الفرضيات والحقائق والوقائع في حجاج يدعم فيه اللاحق السابق.

٢- نظام الحجاج وأنواعه في رسالة ابن خاتمة:

للحجاج أنماطه المختلفة التي بنيت وفاق رؤية عدد من العلماء الذين اعتنوا به؛ فهناك النمط الأول المبني على رؤية برلمان وتيتيكا، والحجاج عندهما أصناف بنيت على مداخل؛ فهناك الطرائق الاتصالية، والانفصالية، ومن حجج الاتصال الحجج شبه المنطقية، والمؤسسة على بنية الواقع، والمؤسسة لبنية الواقع[٢].

---

(١) السابق: ٢٢٦.

(٢) انظر: الحجاج، كريستيان بلانتان. ترجمة: عبد القادر المهيري. دار سيناترا (المركز الوطني للترجمة)- تونس. ط١. ٢٠٠٨م: ٦٦.

"ونجد عند تولمين خطاطة حجاجية تميز بين تسعة أصناف من الحجج: الحجج بالتماثل، وبالتعميم، وبالعلامة، وبالسبب (قانون العبور) وبالسلطة، وبالمأزق، وبالتصنيف، وبالمتعارضات، وبالدرجة"(١).

وهناك أنماطية فان إيمران وقروتندورست، وهي "أنماطية قياسات مغالطية تعتمد نسقا بعشر قواعد يقوم عليها النقاش النقدي، وتحدد هذه القواعد العشرة "عقد التواصل" لحجاج معقلن. وتؤدي إلى خرق أي عنصر من عناصر "عقد التواصل" هذا إلى حصول قياس مغالطي"(٢).

" أما ديكرو وأنسكومبر فإنهما وإن اختلفا عن بيرلمان اختلافا كبيرا من حيث المنطلقات... فإنه يمكن لنا أن نجمل طرائق هيكلة العامل الحجاجي للملفوظ عندهما في اثنين: فهي إما هيكلة بالوصل والضم... وقد وجدت هذه الهيكلة بلورتها النظرية في مفهوم السلالم الحجاجية...أو هي هيكلة قائمة على الفصل والنقض مما يحدثه مثلا الرابط "لكن" في الملفوظ ويصاغ الرسم الحجاجي للملفوظ الذي دخلت عليه لكن في شكل مربع حجاجي"(٣).

وعلى أي حال فإني آثرت الاعتماد على تصنف بيرلمان وتيتكاه في دراسة أنواع الحجاج في هذه الرسالة، وإن كانت جهود العلماء في التصنيف

---

(١) في نظرية الحجاج: ٧٧.

(٢) الحجاج: ٦٦-٦٧.

(٣) الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، مجموعة مؤلفين.
إشراف: د. حافظ علوي. عالم الكتب الحديث- إربد. ط١. ١٤٣١هـ-٢٠١٠م: ١/ ٣٦.

تتداخل بشكل أو بآخر؛ لأن الطرق تؤدي كلها إلى الحجاج، حتى لو اختلفت المنطلقات، مع الإفادة من جهود العلماء الذين أثروا نظرية الحجاج بالدرس والتنظير، وقد رتبت تلك الأنواع وفاق وجودها في الرسالة.

أولا– الحجاج بالسلطة (الحجاج المؤسس على بنية الواقع).

وإذا تتبعت الحجاج في رسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشي العاذل وجدته ينطلق من اسم منشئ الرسالة نفسه، الذي يمتلك قيمة علمية دينية نزيهة، واسم المرسل إليه كذلك؛ حيث بدأت الرسالة بقوله: "قال الشيخ الفقيه العالم العلم الأديب الفاضل أبو جعفر أحمد بن محمد بن علي بن خاتمة: كتب إلى شيخنا الفقيه القاضي الجليل العادل النزيه الصدر الأوحد الخطيب البليغ الأستاذ العلم الأكمل، خلف أولياء الله تعالى ووراث درجتهم، أبو البركات محمد بن محمد بن الحاج البلفيقي –أبقى الله تعالى بركته، وحفظ في مراتب أهل العلم درجته–"(١).

إذن فكل ما سيقال سيأخذ قيمته الحجاجية من موضع المرسل والمرسل إليه اللذين بنيا هذه الفكرة الحجاجية الفلسفية، وقد أورد المؤلف من الصفات لهذين الاسمين ما يحمل المتلقي على تصديق مضمون الرسالة سلفا.

وإن اختيار النعوت أو الصفات من مظاهر اختيار المعطيات وجعلها ملائمة للحجاج؛ "فالصفات تنهض بدور حجاجي يتمثل في كون الصفة، إذ نختارها، تجلو وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع... والمقصد الحجاجي من

(١) ديوان ابن خاتمة: ٢٢٥.

إطلاق الصفة تحديد نوع الموقف الذي ينبغي أن نحكم به عليه... إن إطلاق الصفات... مدحا أو ذما من قبيل المصادرة على المطلوب... لكونها غير مبررة"[١] ولعل هذه الحجة تنتمي بشكل أو بآخر إلى ما يسمى بحجة السلطة؛ لأنها تأخذ من هيبة القائل ونفوذه ما يحمل المتلقي على التصديق.

إذن فقد أخذت الرسالة بعدها الحجاجي وقيمتها التداولية من اسم المرسل والمرسل إليه قبل الولوج في الموضوع.

ثانيا– التعريف (الحجاج الانفصالي التابع للحجج شبه المنطقية).

من الطرق التي استعملها ابن خاتمة في حجاجه، ذلك الشرح والتفنيد والتعريف لمعنى الرقيب وصفاته، ومعنى الواشي وصفاته، والعاذل وصفاته.

"إن الانفصال بين العناصر في الحجاج يقتضي وجود وحدة بينها ومفهوم واحد لها فهي عناصر عائدة إلى اسم واحد يعيّنها وإنما وقع الفصل بينها لأسباب دعا إليها الحجاج"[٢]، وبناء عليه فإنا يمكن أن نجمع عناصر الرسالة تحت مفهوم واحد يمكن أن أسميه: منغصات العشق، أو أعداء العشاق، وأن نفصل بين تلك العناصر أو المفاهيم بالتعريف والشرح (الرقيب، الواشي، العاذل)، وأستدل على ذلك بقول ابن خاتمة: "إن في الحب ثلاث خصال ليس على المحب بعد الهجر أدهى منها، ولا محيص لكل عاشق ومعشوق

(١) في نظرية الحجاج: ٣٢– ٢٤.

(٢) السابق: ٦١.

عنها، وهي على الجملة تتشابه تشابه النظائر، ولكنها عند التفصيل تتباين تباين الضرائر.

فأما الرقيب فمسلط العين، على كل إلفين يترصد الخلس، ويترقب الغلس، ويسلل لحظه بين النفس والنفس؛ ما طلع إلا كدر الوصال، وقطع الأوصال، وقصم الانتظام والاتصال؛ إن لحظ أحفظ، وإن رمق رشق، أو نظر أضر، أو دنا لم يبق ولم يذر.

وأما العاذل فمسلط اللسان على كل محب هيمان، يرشقه بسهام ملامه، ويلوكه لوك المهر لحكمة لجامه؛ كلماته محفظات باردة العظات، مظهرة لوجوه الحسنات في مظاهر الهنات؛ إن قال أحال، وإن تكلم آلم، وإن سلَّم تود لو ترك السنة وما سلم!

وأما الواشي فمصرف العين واللسان، وآخذ من هذا بشأن ومن هذا بشان، نظره اختلاس وتجسيس، وكلامه تخمين وتدليس، إن قصر فلسانه طويل، أو عمي بصره فقائده القال والقيل؛ فالرقيب أعوانه أجفانه، والعاذل سنانه لسانه، والواشي وزيره تزويره وبهتانه"(١).

والحقيقة أن ابن خاتمة أعطى تعريفا واضحا للرقيب والواشي والعاذل، والتعريف "وسيلة حجاج شبه منطقي وهو أيضا وسيلة لإحداث الفصل داخل المفاهيم خصوصا إذا جاءت هذه التعريفات تزعم تقديم معنى للمفهوم

(١) انظر: ديوان ابن خاتمة: ٢٢٧.

الحقيقي... في مقابل معناه الظاهري"[١]، مثل ما حصل مع هذه الكلمات أو المفاهيم (الرقيب، الواشي، العاذل) التي قد تختلط على العاشق، فلا يعلم أيها أشد وطأة عليه.

وبين الرقيب والواشي والعاذل ملابسات فهم، قد تحدث "فصلا بين ظاهر ما يدعون وحقيقة ما عليه الأمور"[٢] وبذلك تزداد الحجة قوة إلى قوتها؛ لأنها "لا تعين السامع أو القارئ على تمثل حقيقة الأشياء فحسب بل تدعو بإلحاح إلى معانقتها فهي الحقيقة"[٣] وعلى المتلقي اتباعها.

ثم لما فرغ ابن خاتمة من هذا الفصل الحجاجي اندفع إلى الحجج المنطقية، وإلى المقارنة بدافع تبين الأشياء.

ثالثا– الحجاج بالسبب (المؤسس على بنية الواقع) .

والحجاج بالسبب أن يذكر المحاج السبب من الفكرة التي يريد أن يقنع بها، وهذا النوع من الحجاج "يعتمد في قاعدة استنتاج تتمثل في علاقة سببية متفق عليها جمعيا، فيقع استنتاج شيء آخر منها" [٤]، وربما يبدأ المحاج بذكر النتيجة، ثم يسوق إليها الأسباب كما فعل ابن خاتمة في رسالته حيث قال: "وإذا بان الفرق وظهر الحق، فأثقل الثلاثة، بعد ما يشتركون فيه من الدناءة

---

(١) في نظرية الحجاج: ٦٣.

(٢) الحجاج: مفهومه ومجالاته:١/ ٥٢.

(٣) السابق: ٦٤.

(٤) الحجاج في بنية كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي، سراب الرحموني. دار سحر المعرفة– تونس. ط١. ٢٠١٣م: ٢٤.

والخباثة، هو الرقيب الراصد، الذي هو العدو الحاسد؛ فلنصدع بالحكم العادل، بين الرقيب والعاذل، فنقول إن الرقيب أثقل منه لوجوه عديدة بين قريبة وبعيدة"[1].

وأثقل الثلاثة: الرقيب الراصد، وذلك للأسباب العشرة التي ذكرها ابن خاتمة في رسالته، وقد صنفها معددا في قوله: " أولها: وهو أعضلها، أن ثقل الرقيب على كاهل المحب والحبيب بخلاف اللائم فعاديته عائدة للهائم، يعني الصب أولا بتعذيبه، وثانيا بشجو حبيبه، فيصير الثقل عليه ضعفا، والواحد لديه ألفا:

(بحر مجزوء الرمل)

قال لي: إن رقيـــــــــبي سيء الخلق فدارِهِ

قلتُ دعني، وجهك الجنـْ ـنَةُ حُفتْ بالمكارهْ[2]".

وأختصر تلك الأسباب العشرة فيما يأتي:

١- ثقل الحاسد يقع على طرفي العلاقة (العاشق والمعشوق) أما العاذل فيتأذى منه طرف واحد في العلاقة.

٢- الحاسد يشاطر المحبوب في لحظة الحب، أما العاذل فليس شرطا أن يكون تنغيصه واقعا في لحظات العشق نفسها، وربما اقتصر عمله على التقليل من شأن الحب فقط.

---

(١) ديوان ابن خاتمة: ٢٢٧.

(٢) السابق: ٢٢٧.

٣- الحاسد يكون موجودا زمن الوصال ضرورة، ويكون سببا من أسباب قطع العلاقة، أما العاذل فموجود على أي حال، وربما ظهر للعاشق في لباس الناصح الأمين.

٤- سلاح الرقيب النظر بالعين، وبها قد يزول الأنس نتيجة المراقبة، أما العذل فمربوط بالقول والقول لا يصدر إلا من عقل، والعقل لا يأتي إلا بخير.

٥- الرقيب عدو، والعاذل صاحب مشفق.

٦- الرقيب متسلط عليك بالنظر، والنظر صدق في أغلب الأحوال؛ لأن الإنسان لا يكذب ما يراه بعينه، أما العاذل فقد تحضر عينه، وقد تغيب، ولذلك يقع منه الخطأ ووقوع الخطأ أهون على العاشق من شاهد العيان.

٧- الرقيب حاسد والعاذل سالم من الحسد.

٨- العاذل لو لم ينلك منه إلا أنه يذكر اسم المحبوب أو صفاته أثناء العذل، فيستمتع بها المحب، وإن كان ذلك الذكر في معرض العذل، أما الرقيب فلا فائدة يجنيها العاشق منه.

٩- الرقيب لا يغيب عن العاشقين بحسده سواء كان حاضرا أو غائبا؛ لأنه يتلصص الأخبار على الدوام، أما العاذل فإذا غاب عن العاشقين غابَ أثره معه.

١٠- العذول يتحدث فتعرف ما يدور في خلده، أما الرقيب فصامت لا تدري ما يخفيه من سوء النية.

إن تلك الأسباب لا تخضع لمنطق التراتبية؛ حتى نقول إن هذه الحجة أقوى من أختها؛ لكنه الحجاج الذي يعتمد على ذكر أسباب قد تكون

متساوية في القوة، وقد تكون متفاوتة في الدرجة، حتى نصل إلى النتيجة التي صرح بها المؤلف من البداية، ثم ختم بها حيث قال: "على أن الرقيب في كل حال ملوم وعلى كل لسان مذموم"(١)، وجاءت لفظة العموم لتأكيد الحجج السابقة، وربما أدخلنا ابن خاتمة بهذه النهاية العامة في الحجاج من باب إدماج الجزء في الكل؛ فإذا كان الرقيب مذموما على كل لسان وفي أي زمان؛ فلن تنجيه صيغة العموم من أي استثناء.

ثم بيّن ابن خاتمة سبب إضافة الواشي إلى الرقيب والعاذل في رسالته، ولم يُسأل عنه، وذكر أنه يقع في منطقة وسط بين الرقيب والعاذل حيث قال: "فقد رأيت الواشي دائرا بين اللقبين، وآخذا بطرف من السببين، فمتى غلب أحدهما عليه، نسب إليه؛ وأما بما هو واشٍ، فأمره عند المحب متلاش، لأن لحظه خلس، وثقله نفس، وإنما جملة اعتماده، على إصداره في التزوير وإيراده"(٢).

لكن ابن خاتمة لم يدرج الواشي في المفاضلة بين الاثنين إلا آخرا، وذلك لأن الواشي قد تغلب عليه صفات الرقيب فيكون مثله، وقد تغلب عليه صفات العاذل فيتخذ سمته، أما وشايته فلا تأثير لها على المتحابين؛ لأن المحبّ لا يصدّق إلا ما يريد، ما لم تغلب عليه إحدى الصفتين.

---

(١) السابق: ٢٣١.

(٢) السابق: ٢٣٠.

رابعا– الحجاج بالشاهد (الحجج المؤسسة لبنية الواقع):

ولم يكتف ابن خاتمة بهذه الطرق حتى يدعم النتيجة التي يرغب أن يقنع بها المتلقي، بل اتخذ من الشواهد الشعرية والأمثال سبيلا لتحقيق الغاية، والوصول إلى الهدف؛ فقد كان يُتبع أي سبب من تلك الأسباب العشرة بشاهد شعري ضرورة، ثم يعرّج على ضرب الأمثال.

وقد ختم بقوله: "إلى غير ذلك من الدلائل، الشاهدة بفرق ما بين ثقل الرقيب والعاذل، وأرجحها في عيار الاعتبار عند مسبار الاختبار قولهم في المثل المضروب: "أثقل من فجأة الرقيب"(١)، ولم يأت في المنقول من المثل المقول: " أثقل من عذول" وهذا أنص في الباب، عند أولي الألباب، فالمثل – كما قيل– علم متداول على الأيام، والقول به ماض عند أرباب الأحلام"(٢).

ومعلوم أن الأمثال " تتضمن خبرات الشعوب وحكمها وخلاصة تجاربها الحياتية، ولذا نجد أن مضامينها ومحتوياتها تتمثل في مجموعة من الحقائق العامة والمعاني الكلية"(٣).

---

(١) ورد المثل في مجمع الأمثال بصيغة مختلفة " أثقل من رقيب بين محبين" مجمع الأمثال، الميداني. تحقيق: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية– بيروت. ط٣. ٢٠١٠م: ١/ ٢١٠.

(٢) ديوان ابن خاتمة: ٢٣٠.

(٣) الخطاب والحجاج، د. أبو بكر العزاوي. مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر–بيروت. ط١. ٢٠١٠م: ٨٢.

وكان ابن خاتمة قد استشهد كذلك بأبيات لابن الأبار تؤكد رأيه في الرقيب والعاذل حيث قال: "ولله در أبي جعفر بن الأبار، فقد جرى مع الطرف في مضمار، وفسر سنة الرقباء، فأشرقهم بالماء، وأُخذت عليهم فروج الهواء"(١)، وتلك الأبيات وردت في نفح الطيب للمقري(٢).

وحتى يوقع ابن خاتمة قارئ الرسالة في قاع القناعة والاقتناع عرج على الشواهد المرتبطة بالدين حتى يذعن من كان في قلبه شك مما ذكر؛ فللدين السلطة العليا على القلوب والعقول، حتى إنه تكلف الشاهد في غير موضعه، وأقحمه في غير سياقه المعتاد حين قال: "على أن الرقيب في كل حال ملوم، وعلى كل لسان مذموم، فقد قيل: مذهب القوم الخلوة، حتى إنهم يرون أن اللحم الذي بين الجلد والعظم رقيب مزاحم؛ فيا لله ما أثقل الرقيب على كل محب هائم، وأعدى فنونه، وأهنا العيش دونه "وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم"، "حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه" إلا الصوم فهو لي وأنا أجزي به"

ومن شر الرقباء ومن جنايتهم موافقة الرياء الذي هو الشرك الأصغر والوزر الأكبر"(٣).

---

(١) ديوان ابن خاتمة: ٢٣٠.

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري. تحقيق: د. إحسان عباس. دار صادر- بيروت. ط١. ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م: ٤٧٧/٣.

(٣) ديوان ابن خاتمة: ٢٣١.

وقد بالغ ابن خاتمة حين جعل الرقبة شركا أصغرا، وجعله بمنزلة الرياء؛ الذي يظهر صاحبه للناس شيئا ويخفي عنهم أشياء، وعندي أنه أفسد حجاجه بتلك الشواهد التي جاء بها في نهاية الرسالة، ولو أنه اكتفى بما قال سابقا لكفى؛ لأن بعض الزيادات نقص.

خامسا– الحجاج بالتعدية/ التضمين (الحجج شبه المنطقية).

"إن من أهم علاقات التعدية ذات الصبغة شبه المنطقية علاقة التضمن... وهي العلاقة المنطقية التي تبين أن قضية ما تتضمن قضية أخرى"[(١)]، وربما برزت هذه الحجة أكثر ما تكون في ختام النص حين ربط ابن خاتمة بين الرقيب الحاسد والمرائي الذي يظهر خلاف ما يبطن؛ وذلك ذكاء حجاجي يزيد من إقناع المتلقي ببشاعة صورة الرقيب.

سادسا– الحجاج بالاستعارة.

للاستعارة أثر كبير في دعم الخطاب الحجاجي؛ نظرا لقدرتها على مخاطبة عاطفة الجمهور[(٢)]، وقد عني بها كثير من النقاد العرب والغرب، وزادت تلك العناية في الآونة الأخيرة، ولا أدل على ذلك من تلك الكتب الكثيرة التي ألفت في شأنها.

والاستعارة أنواع، وقد "قسم عبد القادر الجرجاني إلى مفيدة وغير مفيدة. فالاستعارة المفيدة تلعب دورا أساسيا في البناء الشعري، ولولاها لم يحصل لك

(١) في نظرية الحجاج: ٤٧.

(٢) انظر: الحجاج في بنية كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم: ٢٧.

ما تريد تصويره، أما الاستعارة غير المفيدة فهي لا تعدو أن تكون تلاعبا بالألفاظ.

ونجد تقسيمات أخرى عند كل من كونراد الذي قسم الاستعارة إلى قسمين: استعارة لغوية واستعارة جمالية، وكذا عند رتشارد وجورج لايكوف ومارك جونسون وآخرين"[١].

والاستعارة الحجاجية "تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه، وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية، والاستعارة الحجاجية هي النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية"[٢].

وقد ظهرت تلك الاستعارات أكثر ما تكون في مواضع الحجاج، عندما كان ابن خاتمة يعرف الرقيب والعاذل والواشي، فقد استعمل الاستعارة لبيان ثقل الرقيب على المتحابين بقوله: "مسلط العين على كل إلفين، يترصد الخلس، ويترقب الغلس، ويسلل لحظه بين النفس والنفس... إن لحظ أحفظ، وإن رمق رشق..."[٣] والقارئ لهذا التعريف يجد أنّ ابن خاتمة يشخّص عين الرقيب في هيئة صياد مترصد أو سجاّن متسلط، لا يتورع أن يحمل سهامه – عند الضرورة– ليرشق بها المتحابين كما يرشق الجندي الأعداء، وهو بذلك

(١) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي. مؤسسة الرحاب الحديثة– بيروت. ط١. ٢٠٠٩م: ١١٠.

(٢) السابق: ١١٠.

(٣) ديوان ابن خاتمة: ٢٢٦.

يقدم صورا تدعم قوة حجاجه، وتقدم الرقيب في صورة بشعة تشعرنا بشدة ثقله على النفوس.

ثم يقول: وأما العاذل فمسلط اللسان، على كل محب هيمان، يرشقه بسهام ملامه، ويلوكه لوك المهر لحكمة لجامه"[1].

وتظهر تلك الصور مدى بشاعة صورة العاذل؛ إذ جعل لسانه الذي يلوم به في صورة العبد المأمور الذي ينطلق نحو المتحابين بلا رحمة، وجعل الكلمات الصادرة منه مثل السهام الموجعة، وطريقة لفظه للكلمات من اللسان مثل حركة المهر بما يلوك في فمه، وكل ذلك حتى يقنعنا بتلك الصورة البشعة المقززة للعاذل وكلامه، وبذلك تظهر الهيئة، وتقوى الحجة.

ثم قال: "وأما الواشي... نظره اختلاس وتجسيس، وكلامه تخمين وتدليس"[2] وهنا جاءت الاستعارة التشخيصية كذلك لتخدم الصورة البشعة التي يرغب ابن خاتمة في إيصالها إلى المتلقي.

٣- وظائف الحجاج في رسالة ابن خاتمة:

وقفت كثيرا أمام تصنيف وظائف الحجاج في رسالة ابن خاتمة، ثم توقفت عند مفهوم الحجاج بداية، فإذا كان الحجاج هو الإقناع، فهل للحجاج وظيفة غيره، إذا كنت أجد أنَّ الرسالة برمتها قد أدت وظيفة تواصلية حجاجية؟!

---

(١) السابق: ٢٢٧.

(٢) السابق: ٢٧٧.

ثم عدت لأقف على الأثر الذي أحدثه في هذه الرسالة فوجدت أن الأثر يبينه المقصد، ويصنعه الهدف الذي من أجله أنشئت الرسالة، وهو ما صرَّح به ابن خاتمة في بداية النص حين قال: "سائلا ومنازلا"! "سائلا"؛ أي محاورا متصلا، فالوظيفة الأولى –إذن– كانت وظيفة تواصلية حوارية، ثم "منازلا" أي داخلا مع صاحبه في مساجلة حجاجية بغية الانتصار في الحجاج، وبذا تكون الوظيفة الأخرى نزالية سجالية إن صح التعبير، بالإضافة إلى الوظيفة الإنشائية التي من شأنها أن ينشأ النص على صورته وجنسه.

أولا– الوظيفة التواصلية الحوارية.

إذا كانت المراسلات الأدبية تؤدي هذه الوظيفة التواصلية التداولية بعامة، فإن الحجاج سوف يسهم في تحقيق بعد تواصلي أكبر وأوسع انتشارا؛ لأنه يزيد من عمق الفكرة أولا، وسوف يوصلها إلى فئات لم تكن معنية بتلك الفكرة من قبل.

وربما انتبه القارئ لهذه الرسالة إلى قول ابن خاتمة في البداية:" سائلا"، فالسؤال من البلفيقي تطلب جوابا من ابن خاتمة، وتلك المحاورة تطلبت الحجة بعد الحجة، حتى جاء ابن خاتمة بالجواب الشافي للسائل والمتلقي، إضافة إلى أن المرسل لم يكن يرسل إلى صاحبه حتى يحتفظ بالإجابة لنفسه. لقد كان الاثنان على وعي تام بطبيعة الجنس التداولي الذي يقيمان عليه أدبهما، وينشران من خلاله فكرتهما، وكانا يعرفان كيف تصل الرسالة إلى أكبر قدر من الناس.

ثانيا– الوظيفة السجالية.

لقد قال ابن خاتمة في بداية الرسالة: "كتب إلي شيخنا... سائلا ومنازلا"، والنزال في لغة العرب "أن يتنازَلَ الفريقان، وفي المحكم أن يَنْزل الفريقان عن إبِلهما إلى خَيْلهما فيتَضاربوا..."(١)، وقالوا: "الحروب سِجالٌ أي سَجْلٌ منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء"(٢)، والمساجلة "المفَاخرة بأن يَصْنَع مثل صَنِيعه في جَرْيٍ أو سقي"(٣) وأصل المساجلة: "أن يَستقيَ ساقيان فيُخرج كلُّ واحد منهما في سَجْله مثل ما يُخْرِج الآخر، فأيُّهما نَكَل فقد غُلِب"(٤).

ثم جاء ابن خاتمة على ذكر رسالة الشيخ البلفيقي التي قال فيها: "يامن إذا تنافرت المعاني فهو لها حكم عادل! أيما أثقل على المحب: الرقيب أو العاذل؟ وقد ظهر لي من الأثقل، ولكني أردت أن يتأيَّد ما من ذلك يعقل، بما عن مثلك من الأخبار ينقل. لازلت للمعاني خبئا، ولطلابها ردءا، والسلام"(٥)(٦).

---

(١) لسان العرب، لابن منظور. دار صادر–بيروت. ط٣. ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م: (نزل) ١١/ ٦٥٧.

(٢) السابق: (سجل) ١١/ ٣٢٥.

(٣) السابق: (سجل) ١١/ ٣٢٥.

(٤) السابق: (سجل) ١١/ ٣٢٥.

(٥) ديوان ابن خاتمة: ٢٢٥.

(٦) وقد أورد جامع شعر البلفيقي هذه الرسالة؛ لأنه احتسب قوله في الرسالة شعرا "يامن إذا تنافرت المعاني فهو لها حكم عادل

والرسالة –على صغر حجمها– حمالة معان؛ فالشيخ البلفيقي يعرف تماما مَن مِن الاثنين أثقل؛ لكنه يريد من أخبار السابقين وأشعارهم ما يدعم رأيه، ويقيم حجته، وظاهر الأمر أن الاثنين متفقان على سوء الرقيب، فلماذا قال ابن خاتمة: "منازلا"؟

ويظهر لي أن ابن خاتمة لم يقصد بالمنازلة الغلبة، كأن يتغلب على أستاذه في الرأي، ولعله كان يقصد به تبادل الرأي والمشورة؛ لأنه قال بعد ذلك: "وإن كنت في جوابي كالمستبضع إلى صنعاء وشيا، والمدعي في بني ثغل رميا، والمهدي إلى بوران بنت الحسن حللا وحليا"[(١)]، ومراد الكلام أن التلميذ لم يأت بجديد يقدمه إلى أستاذه في هذا المعنى، فللأستاذ فضله على تلميذه على أي حال! ولكن هل كان ذلك يدخل في باب تأدب التلميذ مع أستاذه فقط، وأن للأستاذ رأيا آخر؟!

وتطلبت الإجابة عن هذا السؤال الرجوع إلى أدب الشيخ البلفيقي للوقوف على موقفه من الرقيب والعاذل، فوجدت أن جل أدبه مفقود، وقد اجتهد بعض العلماء لجمع ما بقي من أدبه فكان ذلك الديوان[(٢)] الذي تتبعت فيه مفهوم الرقيب فوجدت قوله:

(الطويل)

أيهما أثقل على المحب الرقيب أم العاذل" شعر البلفيقي: ٩٠، وجاءت على هذا النحو في كتاب الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام: ٤/ ٤٣٦.

(١) ديوان ابن خاتمة: ٢٣٠.

(٢) انظر: شعر البلفيقي: ٨

"ألا كـــــــرَّم الله الرقيبَ فإنَّهُ كفاني أمورًا لا يحِلُ ارتكابُها

وبالغَ في سدِّ الذريعة فاغتدى يلاحظني نومًا ليُغـــلقَ بابُها"(١)

وهنا يتضح الثناء والدعاء للرقيب الذي حال بينه وبين الوقوع في الخطأ، مع وضوح فهمه لقدرة الرقيب على التفريق بين الاثنين.

وله كذلك قوله:

(الخفيف)

"ورقيبٌ عدمـــتُهُ من رقيبٍ مظلم الوجه والقَفَا والصفاتِ

هو كاللَّيل من ظلامٍ وعندي هو كالصُّبحِ قاطعُ اللذاتِ"(٢).

وله في الرقيب والعاذل:

(البسيط)

"حاشى عهودك أن تنسى وإن بَعُدَتْ عنكَ الديارُ ولم أَسمـــعْ لكم خَـبرا

وُدِّي يزيدُ على ما تعـــــلمون ولا يُصيبهُ النقـصُ طالَ الدَّهرُ أو قَصُرا

كيفَ الوصولُ إلى ذاك الجمـالِ وقد أضحى الرَّقيبُ يُطيلُ البحثَ والنَّظرا

والعاذِلون أذاقوني مرارتهـــــــــم وخوَّفوني وقالـــــوا لي جرَى وجرَى"(٣).

وظاهر من هذه الأبيات كلها أن الاثنين متفقان على الفكرة، فأين النزال إذن؟

إن المطلع على العلاقة المتينة التي تربط بين ابن خاتمة وشيخه قوية جدا، ويبدو أن فكرة ثقل الرقيب والعاذل كانت متداولة بينهما في مجالس أنسهم

---

(١) شعر البلفيقي: ٢٨.
(٢) شعر البلفيقي: ٣١
(٣) السابق: ٣٩.

ومذاكرتهم، ويبدو أن هذه الرسالة كانت ثمرة حوار ومناقشة وتبادل رأي، وكان ظهورها مبنيا على اتفاق مسبق، أرادا من خلالها توعية العشاق بثقل الرقيب على المتحابين، وهذا يفرض علينا الإيمان بمعايشة الاثنين لضروب العشق، ومصارعتهما صنوف عذابه، ولهذا تكررت الفكرة عند ابن خاتمة وشيخه في ديوانيهما، والمرء لا يكثر الحديث عن شيء لم يشغل باله، ويأخذ من فكره حيزا.

إذن؛ فالنزال، أو السجال الوديّ راجع إلى أمرين في نظري؛ الأول وهو أمر يعرفه المطلع على ذلك الرابط بين الأستاذ وتلميذه، والثاني قد يكون سجالا نصيا ورقيا تجلى في كتابة رسالة جاء الرد عليها برسالة أعمق وأوفى، أو أن شعرا كتب في ذلك، فرد عليه الآخر بأدب جديد في مساجلة أدبية معروفة النتائج مسبقا، أو متفق عليها ضمنا.

وعلى أي حال فإن العارف بالحجاج المطلع على وجوده يعلم يقينا أنه قد يؤدي هذه الوظيفة السجالية، وذلك عندما يكون الأدب متداولا بين طرفين أو أكثر، مثل الفكرة المتداولة بين الناس في المراسلات، أو الخطب، أو النقائض والمنافحات والمفاخرات، وعلى هذه الأرضية الخلافية أو الودية "يبنى الحجاج ويسير لمعالجة الأمور وإيجاد الحلول في مسارات متنوعة مختلفة، معولا حينا على قوة الحجة في ذاتها، مستثمرا حينا آخر في فضائل القائل، أو مستثيرا عواطف الجمهور ومحركا أهواءهم، أو مغالطا إياهم مشبها عليهم. فطرائق الإقناع والتأثير في الحجاج مختلفة، ومقاصد المحاج واقعة بين حدين

متباعدين هما إظهار الحق والسعي إليه والصبر على مكروهه، وتحقيق الظفر"[1].

إذن فقد أدى الحجاج في هذه الرسالة وظيفته التداولية السجالية بغية إشاعة الفكرة التي آمن بها هذان العلمان.

ثالثا– الوظيفة الإنشائية.

إذا كان الحجاج اللافت الأول الذي في هذه الرسالة، وكانت الأطراف المعنية بها قد أقامت فكرتها على رغبة في تواصل حجاجي أنشأ هذا النص فإن الحجاج فيها قد أدى وظيفة إنشائية؛ لأن الحجاج والتواصل كانا أساس الرسالة، وعليهما بنيت وبسببهما أنشئت.

فقد بنى الحجاج النص تراتبيا حتى أوصلنا إلى النتيجة التي يرغب فيها طرفا الرسالة، ومفادها أن الرقيب أشد وطأة على المتحابين من الواشي والعاذل.

وإذا أمكنني الاستعانة بنظرية السلالم الحجاجية التي آمن بها ديكرو وأنسكومبر، فإني أظن أن بناء النص كان على النحو الآتي:

الدعاء الإيماني والختام الديني الذي يشد عضد النتيجة، ويساعد في التسليم بالفكرة.

التصريح بالنتيجة التي تصب في ثقل الرقيب على المتحابين أكثر من العاذل أو الواشي.

---

(١) الحجاج الجدلي، عبد الله البهلول. دار نهى للطباعة– صفاقس. ط١. ٢٠١٣م: ١٠.

الأسباب التي تبين قبح الرقيب وزيادته في السوء على غيره، مع دعم الأسباب بالشاهد والمثال.

أن الرقيب والواشي والعاذل أصناف من الناس يعرف منشئ النص صفاتهم، ويمكنه التعريف بهم جيدا.

الرأي الذي ستبنى عليه الرسالة سوف يصدر عن خبير مجرب معايش للواقع.

التوفيق بيد الله، وما الفكر الذي يحمله البشر إلا إلهام من الله عز وجل.

الأطراف المعنية بالرسالة قوم عدول لا يرد لهم رأي، ويمكن الاطمئنان إليهم، والتسليم بآرائهم.

ولقد أضاف المؤلف الواشي إلى العاذل والرقيب؛ حتى يبين للمتلقي معرفته البالغة بالأمر، وخبرته المبنية على المعاصرة والتجريب، وفي ذلك إضافة حجاجية أسهمت في إنشائية الرسالة بدءا من عتبة العنوان حتى النتيجة في الختام.

والجنس الترسلي يقوم على بناء مخصوص، وشكل فني معروف هو "البداية أو الصدر والمتن ثم النهاية أو الخاتمة... ففي البداية غالبا ما يخاطب الكاتب فيه من أرسلت إليه الرسالة، وفي المتن يتناول الكاتب الموضوع الذي أنشئت من أجله الرسالة، وفي النهاية يدعو الكاتب بالسلام لمن كتب إليه

الرسالة"[1]، وبناء على فهم ذلك البناء فإني أستطيع الجزم بالوظيفة الإنشائية لهذا الحجاج باطمئنان بالغ.

وهكذا أسهم الحجاج في إنشاء الرسالة، وكان جزءا من بنائها المخصوص، الذي تحدثت عنه.

الخاتمة.

خلصت من هذه الدراسة بعدد من النتائج ألخصها على النحو الآتي:

١- اعتمد ابن خاتمة على عدد من المقدمات الحجاجية الجلية التي كفلت لنصه بلاغة حجاجية ناجعة.

٢- نوَّع ابن خاتمة بين عدد من الحجج حتى يكفل لمنطقه التحقق والقبول.

٣- أدى الحجاج في هذا النص عددا من الوظائف الأساسية المرتبطة بالحجاج أصلا كالإنشائية، والسجالية، والتواصلية الحوارية.

٤- كانت فكرة الرسالة متداولة بين ابن خاتمة والبلفيقي قبل إنشائها، وإنما جاءت الرسالة لتبين الفكرة بشكل أكثر وضوحا وجلاء.

٥- قدمت هذه الرسالة فكرة تمثل مرحلة تعتمد على التفكير والحجاج؛ لإثبات رؤية ونبذ أخرى بطريقة لا تخلو من الطرافة والتشويق.

هذا والله أعلم والحمد لله أولا وآخرا.

---

(١) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري: ٨٥.

ثبت المصادر والمراجع:

١- الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد لسان الدين بن الخطيب. مطبعة الموسوعات - القاهرة. ط١. ١٣١٩هـ.

٢- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز القيسي. دار البشير- عمّان. ط١. ١٤٠٩- ١٩٨٩م.

٣- أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن (نثير الجمان في شعر نظمني وإياه الزمان)، الأمير إسماعيل بن الأحمر، تحقيق: محمد رضوان الداية. مؤسسة الرسالة -بيروت. ط٢. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٤- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي. راجعه: عبد الوهاب ابن منصور. المطبعة الملكية-الرباط. ط٢. ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٥- التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، أ. د. صالح بن الهادي رمضان. النادي الأدبي بالرياض. المركز الثقافي العربي -الدار البيضاء. ط١. ٢٠١٥م.

٦- الحجاج الجدلي، عبد الله بهلول. دار نهى للطباعة-صفاقس. ط١. ٢٠١٣م.

٧- الحجاج في بنية كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي، سراب الرحموني. دار سحر المعرفة-تونس. ط١. ٢٠١٣م.

٨- الحجاج: مفهومه ومجالاته، مجموعة مؤلفين. إشراف: د. حافظ علوي. عالم الكتب الحديث-إربد. ط١. ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

٩- الحجاج، كريستيان بلانتان. ترجمة: عبد القادر المهيري. دار سيناترا (المركز الوطني للترجمة)-تونس. ط١. ٢٠٠٨م.

١٠- الخطاب والحجاج، د. أبو بكر العزاوي. مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر-بيروت. ط١. ٢٠١٠م.

١١- دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، د. الطاهر أحمد مكي. دار المعارف -القاهرة. ط٣. ١٩٨٧م.

١٢- ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ورسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل. تحقيق: د. محمد رضوان الداية. دار الفكر -دمشق. ط١. ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
١٣- الرسائل الأدبية ودورها في تطور النثر العربي القديم، أ. د. صالح بن الهادي رمضان. دار الفارابي-بيروت. ط٢. ٢٠٠٧م.
١٤- شعر أبي البركات البلفيقي، جمع وتحقيق: عبد الحميد الهرامة. مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث-دبي. ط١. ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
١٥- في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، أ. د. عبد الله صوله. دار مسكيلياني للنشر-تونس. ط١. ٢٠١١م.
١٦- لسان العرب، لابن منظور. دار صادر-بيروت. ط٣. ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
١٧- اللغة والحجاج، د. أبو بكر العزاوي. مؤسسة الرحاب الحديثة-بيروت. ط١. ٢٠٠٩م.
١٨- مجمع الأمثال، الميداني، الميداني. تحقيق: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية-بيروت. ط٣. ٢٠١٠م.
١٩- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري. تحقيق: د. إحسان عباس. دار صادر-بيروت. ط١. ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

* * *